# فوائد

# من مذكرات

# أبي شوقي

(لـ حسين أحمد شوقي)

جمع وترتيب

عبدالعال سعد عويد الشليّه

حسين شوقي

# أبي شوقي

الناشر :
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا — القاهرة
١٩٤٧

▣ كانت دار أحمد شوقي في (المطرية) وكان يطلق عليها اسم (كرمَةُ بن هانئ) .[1]

(ص٤)

▣ يقول المؤلف : وأما أختي أمينة كانت متزوجة قبل الخامسة عشر .

(ص٤)

▣ قال المؤلف : وكانت هواية أبي شراء الأثاث والتحف من المزادات العامة من وقت لآخر .

(ص٤)

▣ يقول المؤلف : كانت والدتي رقيقة الحاشية إلى حد بعيد حتى لقد كان أبي يشبهها بقطة أنقرة بسبب هذه الرقة وإذا كان أبي قد وفق في حياته الأدبية فأكبر الفضل لها ، فهي لم توجه إليه لوماً في حياته مرة .

(ص٩)

▣ يقول المؤلف : حينما كنا في أوربا وكنا نذهب إلى أحد المطاعم كان أبي يغضب منا ، من عليّ ومني حين نختار الأصناف المألوفة بل كان يجب علينا على حسب رأيه هو أن نختار أصنافاً جديدة مجهولة الأسماء كي يختار هو منها في المرة القادمة إذا راقته! فكانت اقتراحاته هذه تفسد علينا الأكلة ، لأن الأصناف المجهولة كانت "مقالب" في معظم المرات . كان حظي منها مرة ضفدعاً وطبعاً لم آكله .

---

(1) قال المؤلف في المقدمة : كنا نقطن المطرية ، إحدى ضواحي القاهرة المتطرفة ، كانت لنا هناك دار واسعة تحيط بها من كل جانب حديقة فسيحة ، وقد أطلق عليها أبي اسم « كرمة بن هانئ» ... العباسي، أي أبي نواس .. لأن أبي كان معجباً بهذا الشاعر الذي لم ينل حظه من الدراسة العميقة مع الأسف الشديد .

(ص١٠)

■ لما أراد الخديوي الذهاب للحج أخذ معه أبي فلما بلغ الركب الخديوي (بنها) اختفى منه أبي، فجعل سموه يبحث عنه ولكن دون جدوى ، ويقول أبي إنه اختبأ إذ ذاك في منزل أحد أصدقائه .

ولما عاد سموه من الحجاز وأخذ يلوم أبي على فعلته ، اعتذر هذا قائلاً : كل شيء إلا ركوب ظهر الجمال يا أفندينا! ولكي يعوض سموه عن هذا التقصير ، نظم له قصيدة ترحيب وتهنئة بالحج طويلة عامرة الأبيات وهي :

إلى عرفات الله يا ابن محمد :: عليك سلام الله في عرفات .

(ص١١)

■ كان أبي له حظوة عند مليكه ، فقد كان لا يخيب له رجاء ولكن كانت محبة سموه تسبب له بعض المتاعب لأن طابوراً من أصحاب الحاجات والعرائض كان يقصد مكرمة ابن هاني كل صباح فكان أبي يقابل منهم ما استطاع ، فإذا كلّ أو كان معتل المزاج هرب من باب خلفي صنع خصيصاً لهذا الغرض بالحديقة .

(ص١٤)

■ أقام أبي وليمة وحفلة ساهرة تكريما لأمير تركي عظيم ، دعي إليها عدد كبير من عظماء البلد وأعيانها ، وكان المفروض طبعاً أن يفتتح الأمير المذكور المقصف ، ولكن تقدم الليل والأمير لا يحضر ، فاحتار أبي ماذا يصنع؟ اتصل بفندق (شيرد) حيثُ ينزل الأمير فقيل له إن سموه معتكف في غرفته ، فاضطرب أبي ثم استقل سيارته وأسرع نحو الفندق وكم كانت الدهشة حين ألفى الأمير مريضاً حقاً ! .

تألم أبي لهذا لأن وليمته التي أعدّها من مدة وأنفق عليها كثيراً سوف تخفق ، ثم تذكر فجأة ولم يغادر غرفة الأمير التركي بعد ، أن هناك بفندق الكونتيننتال أميرين

عربيين كريمين ، ألا وهما الأمير فيصل (المغفور له الملك فيصل فيما بعد) وشقيقه الأمير عبدالله (ملك شرق الأردن الآن) ، فأسرع إليهما وقص عليهما كارثته مردفاً : ألا يرى الأميران العربيان أن يحلاَّ محل الأمير التركي في تصدر هذه الوليمة؟ ولقد قبلا سموهما هذه الدعوة المرتجلة عن طيب خاطر ... لحبهما لأبي واغتباطاً بحلولهما محل الأمير التركي لأنه هناك نفور بين الترك والعرب إذ ذاك ، وبهذه الوسيلة لم تخفق الحفلة! .

(ص١٧)

▪ كان لمنزلنا في (بيوك دره) برج يشرف نظراً لارتفاعه على جميع الضواحي كان أبي يقيم فيه الولائم للضيوف وأكثرهم من المصربين المصطافين .

وكانت توجد بجوارنا سفارة روسيا ، وكانت أجمل وأفخم سفارة في ذلك العهد في اسطمبول ، وكان يقوم على حراستها جنود من القوزاق ذو وملابس زاهية جميلة موشاة بالقصب وأسلحة براقة ، كما كانت لهم شوارب طويلة ولحى كثيفة يلقي منظرها الرعب في قلوبنا نحن الصفار .

(ص١٩)

▪ كان السلطان عبد الحميد معروفاً لدى الأوربيين بالسلطان الأحمر، وهو مظلوم على حد قول أبي بهذه التسمية، بل ضحية لتشهير الأجانب، لأنه كان حجر عثرة لمطامعهم في تركيا، وقد قّدَّمَ الخديوي – عباس حلمي – أبي لجلالته فوجده عكس ما كان يُشاع عنه، رأى عاهلاً حيياً متواضعاً مثقفاً للغاية . وجلالته هو الذي أنعم على أبي بالرتبة الغربية التي كان يحملها إذ أن رتبته كانت (بك) ومع ذلك كان يلقب بـ (بصاحب السعادة) وقلائل هم في مصر الذين أنعم عليهم بها .

(ص٢٤)

▪ يقول المؤلف : ولما خلع السلطان عبدالحميد ، بيعت محتويات قصره العظيم (يلدز) في المزاد العلني ، وكان أبي لا يرغب في شراء أي شيء منه احتراماً لذكرى عاهله ، ولكنا ألححنا عليه في شراء كلبين هناك من نوع (اللو لو) وهما لم يعمرا إلا أياماً ثم ماتا حزناً على فراق سيدهما ، إذ أضربا عن الطعام وقد قال الطبيب الذي استدعيناه إذ ذاك أن لا علة بهما البته اللهم إلا الحزن .

(ص٢٥)

▪ يقول المؤلف : كان أبي يحب الأتراك حباً جماً .

(ص٢٦)

▪ الترك شعب عظيم ، وأكثر شيء أعجبنا هناك نظافة القوم ؛ وإليك الحادث الآتي الذي يدلك على مدى نظافتهم : كنا نتنزه ذات يوم في عربة «حنطور» بضواحي اسطمبول فأصيبت إحدى عجلات العربة بعطب ، فرجانا عندئذ السائق أن نستريح قليلا في بيته ، وكنا على مقربة منه ، حتى يصلح العجلة . فترددنا قليلاً إذ خشينا أن يكون بيت السائق المذكور غير نظيف ، ولكن قبلنا في النهاية كي لا نجرح شعوره ؛ وما كان أشد دهشتنا حينما وجدنا البيت آية فى النظافة كما قدمت امرأته القهوة لأمي والمربية فى فنجانين نظيفين جداً ، أما نحن الصغار فقد أعطت كلاً منا قطعة من الحلوى التركية المعروفة «باللكوم» واستمرت رحلاتنا هذه الصيفية إلى اسطمبول لغاية إعلان الحرب العالمية الأولى .

(ص٢٧)

▪ عندما عُزل الخديوي : نُفي أحمد شوقي وأُمر بمغادرة الوطن عام (١٩١٥م) لينجو من الدسائس ولا يتألم بمثل هذه المشاهد .. ومع ذلك حزن أبي لأنه ترك

بمصر أمه المحبوبة ، وكانت مريضة في حلوان إذ ذاك ، إذ أن شعوراً خفياً كان يوحى إليه أنه لن يراها بعد ! .

(ص٢٩)

◘ يقول المؤلف : عندما نُفي أبي إلى الأندلس ركبنا سفينة إلى برشلونه وكان منظرها غير مشجع لأنها لم تكن كبيرة الحجم ولا جديدة البناء ، بل كانت سفينة بضاعة أُعدّ بها مكان صغير لقبول الركاب ولم يكن لدينا الخيار . وقديماً قالوا . إن المضطر يركب الصعب .

(ص٣٢)

◘ وكان هناك على ظهر السفينة غيرنا وغير هؤلاء الالمان والنمساويين بضعة ركاب أسبان عائدين إلى الوطن ، وقد جُن أحدهم بسبب طول الرحلة ، لأنه مضى على السفينة المذكورة أكثر من شهر في طريق العودة ... على أنه يقال إن مثل هذا الجنون وقتي ، ويزول بوصول المريض إلى البر .

(ص٣٣)

◘ وكان بالسفينة أيضا شحنة كبيرة من الثيران لأن أسبانيا أكثر البلدان استيراداً لها بسبب حفلات المصارعة التي يحبها الشعب الأسباني حباً جماً على ما فيها من قسوةٍ . وهبت علينا عاصفة هوجاء فقد صادفتنا بعد خروجنا من بورسعيد بيوم ، وقد بدأت بعد الظهر واستمرت يومين كاملين كانت سفينتنا خلالها ارجوحة في أيدي الأمواج . وقد رأى القبطان إزاء الحالة الخطيرة التي كنا فيها أن يخفف عبء السفينة وذلك بأن يلقي في البحر جميع هذه الثيران ! وقد تم ذلك على الرغم من توسلات أبي . كم كان منظرها بشعاً إذ ذاك كانت الثيران المسكينة عندما تلقى إلى الموج تحاول العوم فإذا كلت أسلمت نفسها للقضاء وهي تصيح صياحاً مؤلماً .

(ص٣٤)

▫ قال المؤلف : كان أبي يخشى مرض السرطان لأنه قرأ مرة أن أكثر الناس تعرضاً له المفكرون . وذلك كان عند ظهور أي دمل في لثته أو على لسانه يتوجه فوراً للطبيب .

(ص٣٦)

▫ قال المؤلف : وكان معنا في الرحلة طبيب نمساوي خفف وطأة دوار البحر علينا ، وقد أحببناه من تلك اللحظة ، كما كان صديقاً حميماً لأبي طوال الرحلة ثم مدة المنفى في أسبانيا ، واستمرت هذه الصداقة بعد عودتنا إلى مصر بعد الحرب إذ عاد هو أيضا إليها ومن حسنات هذا الطبيب أنه كان يعالج الفقراء مجاناً ، مع أنه كان شديداً في معاملته للأغنياء ! وكان يحب المصريين حباً جماً وبخاصة المسلمين .. حتى لقد أسلم بعد عودته إلى مصر بقليل .. وقد اختار اسم حسين مثلي .. مجاملة لأسرتنا .

(ص٣٧)

▫ وهذا الطبيب عندما بدأ يدب في رأسه الشيب أصبح يحرص على جمع المال فلا يرد الزباين كما كان يفعل في أسبانيا .. لذلك ترك ثروة لا بأس بها عندما مات في عام (١٩٣٥م) أي بعد وفاة أبي بثلاثة أعوام ... وقد وهبها لابن (تمرجيه) الذى كان قد تبناه .

(ص٣٦)

▫ يقول المؤلف : عندما وصلنا إلى برشلونة ، أقمنا عدة أسابيع في فندق في قلب المدينة لأن حياة الفنادق لذيذة مسلية ، فكل يوم تشهد مناظر مختلفة ووجوها جديدة .. ولكن نفقات مثل هذه الحياة كانت باهظة وبخاصة لأسرة كبيرة مثلنا .. كما أن النقود التي كان يرسلها إلينا وكيلنا في مصر كانت محددة بأمر السلطة العسكرية ، حتى لا نستطيع – على حد زعمها – أن نساعد بها أعداء بريطانيا

العظمى ... ولم يكن هذا المنع خاصاً بنا ، بل كان يشمل جميع المصريين في الخارج إذ ذاك .

(ص٣٧)

▣ وبرشلونة التي اتخذناها مقراً لنا أهلها من أكثر الناس حباً للمرح والسرور، ولأن ملاهيها كانت تظل مفتحة الأبواب حتى .. صياح الديك ! من أجل ذلك كنت قلما تجد موظفاً يذهب هناك إلى عمله قبل العاشرة ! .

(ص٣٦)

▣ أما النقود التي كانت ترسل إلينا شهرياً من مصر فهي ٢٠٠ج كانت تصلنا حوالي ١٢٠ج فقط ، لأن الجنيه الإنجليزي الذي كنا ( ومازلنا!) مرتبطين به كان في هبوط مستمر إذ انجلترا وحلفائها الحربية كانت سيئة جداً إذ ذاك .

حقاً إن الإنجليز قوم محظوظون . فهم يكسبون الحروب دائماً في الشوط الأخير . كما حدث في الحرب الأروبية الثانية ومع ذلك كانت هذه النقود القليلة تكفينا كل الكفاية ، لأن الحياة كانت رخيصة في أسبانيا في ذلك الوقت . مثال ذلك أننا كنا نشتري مئة البرتقالة بخمسة قروش ! .

(ص٤٣)

▣ قال المؤلف : كان أبي يعطيني بنفسه دروساً في اللغة العربية طوال مدة المنفى ، كما كان يدرس لأخوي . أما العلوم الأخرى فكنت أتلقاها في مدرسة ألمانية التحقت بها ، إذ كنت شديد الرغبة في تعلم اللغة الألمانية . أما أخواي فكانا يتعلمان الفرنسية وبقية العلوم على مدرس فرنسي يحضر خصيصاً إلى المنزل كذلك شرع أبي يتعلم اللغة الإسبانية . وقد تعلمها فعلاً ولكن نطقه فيها لم يكن سليما ، لذلك كان يثير ضحكنا كلما أخطأ في النطق أمامنا . مما كان يغضبه ويجعله يصيح : حقا ! أنتم أولاد غير متربين ! وما زلنا محتفظين إلى اليوم بكتاب

النحو الأسباني الذي كان يتعلم فيه . وقد غطى غلافه بأشعاره ؛ لأنه كان من عادته أن يكتب على أية غلافة كتاب بيضاء تصادفه ! وهذه الأشعار من كتاب «دول العرب وعظماء الإسلام» الذي ألفه كله هناك ، كما ألف في تلك الحقبة رواية «أميرة الأندلس» .

(ص٤٣)

▣ كان أبي يقول النمساويين أرق شعوب أوربا وأطيبهم أخلاقاً .

(ص٤٩)

▣ يقول المؤلف : ولا يشاهد المرء آثار العرب في الأندلس فحسب ، بل يحس هناك كذلك بجوهم .

(ص٥٢)

▣ مع طول إقامتنا في برشلونه لم يتسرب الملل إلى نفوسنا لما عليه المدينة من جمال وبهجة .

(ص٥٣)

▣ يقول المؤلف : أشبيلية هي التي أوحت إلى أبي رواية (أميرة الأندلس) .
كما هناك مثلاً يقول : إن من لم يشهد أشبيلية لم يشهد العجب .

(ص٦٣)

▣ حللنا بعد ذلك بغرناطة .. التي كانت آخر معقل للمسلمين في أسبانيا .. وبها أجمل ما بقى من القصور العربية قاطبة في تلك الديار الا وهو : الحمراء، والحمراء سميت هكذا نسبة إلى ابن الأحمر مؤسسها ومؤسس دولة بني الأحمر في غرناطة ونواحيها ، وهي مبنية على آكام يصعد إليها في نحو ربع ساعة بالقدم من حاضرة غرناطة . وهذه الآكام يشرف عليها الجبل الشهير المعروف «بالشير انقادا» الذي لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءاً ، مما جعل أبي يقول :
جلل الثلج دونها رأس (شيرى)

فبدا منه في عصائب برس

سرمد شيبه ، ولم أرشيبا

قبله يرجىء البقاء وينسى

أما القصر نفسه ، فآية في الروعة والجمال بحجره الرحبة الواسعة ، ونقوشه الدقيقة ، وفسيفسائه الملون وأجمل هذه الحجر ، الحجرة التي يقال لها مجلس السفراء ، وفيها كان ملوك بني الأحمر يقابلون رسل ملوك الإفرنج وسفراءهم ، والحجرة المذكورة مفروشة بالرخام ومزينة الجدران بأحسن النقوش وأبدع الخطوط .. ومن نوافذها يطل الناظر على حي البيازين .. وكان من أعمر الأحياء في عهد العرب .. أما الآن فيقطنه «الفجر» .

(ص٦٤)

◙ وكان بالحمراء مسجدان : أحدهما كبير ، والآخر أشبه بالزاوية : فأما الكبير فقد حوله ملوك الإفرنج إلى كنيسة فتغيرت معالمه إلا صخره وحجره . والآخر وهو أصغرهما لا يزال على حالته ، وهو بديع الشكل يكاد يحبب الصلاة إلى تاركها ، وهو حجرة واحدة قليلة المساحة عليها قبة من أضخم القباب وأفخمها وأحسنها زينة وأزينها حلية .. ولما كانت تحيط بالحمراء غابة مترامية ذات رياض ناضرة وخمائل زاهرة ، فقد رأى الأسبان أن ينشئوا فيها فنادق للسياح ، وقد أقمنا في أحد هذه الفنادق .. وكان يدعى فندق (وشنطون أرڤنج) وهو اسم كاتب أمريكي شهير أحب الحمراء فكتب عنها قصصاً كثيرة .

وقد تعرفنا في هذا الفندق بضابط أسباني ، وأسرته على كثير من الدعة والظرف ، ولما كان هذا الضابط شديد السمرة فقد قال له أبي إن لونه عربي ، فأجاب هذا فخوراً أنه في الواقع من أصل عربي ، وأنه على حسب شجرة أسرته . يجري الدم العربي في عروقه ، غير أنه ليس دماً عربياً عادياً بل هو دم الأمويين الأمجاد .

(ص٦٥)

▣ قال المؤلف : اختار أبي السكن في الجيزة – عندما سُمح لنا بالعودة إلى مصر سنة ١٩١٩م – لقربها من الأهرام التي كان أبي مغرماً بها ، إذ كان يحملنا على الذهاب إليها كل يوم جمعة تقريباً .. كنا نأخذ معنا طعامنا ثم نذهب إلى مقهى صغير منعزل أمام فندق (مينا هاوس) وكنا نختار هذا المكان المتواضع لنكون أحراراً ، كان يحضر معنا في هذه الرحلات المرحوم حافظ بك إبراهيم الذي كانت صحبته جد مسلية ، غير أنه كان يضايقني (بالسيجار) الذي كان يفرض عليَّ تقديمه له ، كنت أشتري له سيجارين كان الواحد بعشرة قروش وكنت أظن أنه نوع جيد ، إذ لم أكن أفهم في أنواعه ، غير أنه كان يرفضه في غضب ويطلب إليّ شراء نوع آخر كان السيجار الواحد منه بثلاثين قرشاً .

(ص٩٨)

▣ قال المؤلف : كان أبي يتشائم ، فكان إذا تراءى له من بعد أحد معارفه الذين اشتهروا بمنحوس الطالع ، ركب سيارته من فوره وأمر السائق بالانطلاق ...
كذلك كان يتشاءم من صوت البوم ، وقد أشار إلى ذلك في رثائه للمرحوم العلامة على بك بهجت ، وكنا يومئذ لا نزال نقيم في ضاحية المطرية :

أرقتُ وما نسيتُ بناتِ بومٍ
على المطرية اندَفعَتْ بُكيّا
بكَتْ وتأَوَّهَتْ فَوَهِمْتُ شَرّاً
وقبلي داخل الوهمُ الذَّكيا
قلبتُ لها الحذيَّ وكان مني
ضلالاً أَن قلبتُ لها الحذيَّا .[2]

(ص١٠٣)

---

(٢) رحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي فقد أخطأ في هذ التشاؤم الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم . حيث قال (لا عَدوَى ولا طِيَرَةَ ويُعجبُني الفَأْلُ) . رواه البخاري (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤) .

◙ كان أبي يحب كثيراً الجلوس في مقهى (داركور) القائم بميدان السوربون بالحي اللاتيني ، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه وهو شاب أي من ثلاثين عاما . حدثنا أبي عن ذكرياته في هذا المقهى ، فقال : إنه تعرف فيه بالشاعر الفرنسي الشهير (ڤرلين) الذي كان لا يكف عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعني بمسحها ؛ إذ كان شاعراً بوهيميا .

وكان طلبة السربون الذين يمرون بين يديه وهو على تلك الحالة ، يرفعون له قبعاتهم إجلالا له .. في حين كان هو لا يشعر بمكانهم ؛ إذ يكون سابحاً في عالم الشعر والخيال .

(ص١٠٧)

◙ قال المؤلف : صلة أبي بالدكتور محجوب[٣] قديمة جداً ، ولكنها توطدت في تلك الفترة من الزمن، إذ صار الدكتور من ضيوف «الكرمة» المزمنين .. ولكنه مع الأسف كان آخر من يحافظ على موعد غداء أو عشاء .

وكان الدكتور محجوب عالماً واسع الاطلاع ، وبخاصة في مسائل السودان ، كان يحفظ أسماء القبائل هناك واحدة واحدة ، والمقاطعات السودانية يعرف أسماء كل قرية فيها ولكنه مع الأسف لم يكن مرتباً في معلوماته . وما كان أصدق سعد باشا حين وصفه بمكتبة غير منظمة .. كذلك كان الدكتور يتذوق الشعر الجيد ، ولكنه كان يكسر أحيانا الأبيات إذا أنشدها عن ظهر قلبه فيغضب أبي من هذا ويلومه .

(ص١٢٧)

---

(٣) محجوب ثابت طبيب مصري، من الكتاب، له مواقف خطابية. اشتهر بمناصرته لقضية السودان السياسية، وبدعوته إلى تنظيم حركة العمال بمصر (سنة ١٩٢٠) وإدخاله التدريب العسكري في الجامعات والمدارس المصرية. أصله من دنقلة. وكان أبوه " ثابت " مهندسا فيها تولى النظر في العمارات والحصون الأميرية، وهاجر إلى القاهرة في السنة التي ولد بها محجوب. ونشأ هذا طبيبا، دمث الخلق، عف اللسان سليم الطوية، حلو العشرة، عمل في النهضة المصرية مع سعد زغلول، وكان من خطباء الثورة (سنة ١٩١٩) ونفي. ثم كان من أعضاء مجلس النواب المصري. وعين أستاذا للطب الشرعي في الجامعة، فكبيرا لأطبائها. وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥م . (الأعلام . لـ الزركلي ٢٨٣/٥) .

◙ وقد ظفر الدكتور محجوب من أبي بمقدار من الشعر قاله فيه لم يظفر به صديق آخر .. ولكن بعض هذه الأشعار كان يثير غضبه زاعما أنه سوف يقضي على سمعة عيادته ، وبخاصة الأبيات التالية فقد أخرجت الدكتور «محجوب» عن طوره عندما ناولها أبي للأستاذ الجديلي ليتلوها خلال إحدى ليالي السمر (بالكرمة) إذ هم الدكتور بالانصراف ، فهرول وراءه المدعوون ولم يرجع الدكتور إلا عندما صاح في وجهه أحدهم قائلا : ويحك يا دكتور كان الأولى بك أن تفرح لا أن تغضب ، فقد ظفرت بشعر شوقي الذي سيخلدك أبد الآبدين .. فهدأ الدكتور ثانية وعاد أليه مرحه وإليك هذه الأبيات :

بَرَاغِيثُ مَحجوب لم أَنسَها

ولم أنسَ ما طعمتْ من دمي

تشقُّ خَراطيمُها جَوْرَبي

وتنفُذُ في اللحم والأَعظُمِ

وكنتُ إذا الصَّيفُ راح احتجمتُ

فجاءَ الخريفُ فلم أحتجم

ترحِّبُ بالضَّيف فوقَ الطريقِ

فبابِ العيادةِ فالسُّلَّم

قد انتشرت جوقةً جوقةً

كما رُشَّتِ الأَرضُ بالسِّمسِم

وترقصُ رقصَ المواسي الحدادِ

على الجِلدِ ، والعَلَقِ الأَسحم

بواكيرُ تطلعُ قبل الشِّتاءِ

وترفعُ ألويةَ الموسمِ

إذا ما (ابن سينا) رمى بلغماً

رأيتَ البراغيثَ في البلغم

وتُبصِرُها حول بيبا الرئيس

وفي شاربيهِ وحولَ الفم

وبينَ حفائرِ أسنانهِ

مع السُّوسِ في طلبِ المِطْعَم

(ص١٢٨)

▪ وقد دعي عندنا في هذا العهد أيضا السيد الثعالبي الزعيم التونسي الشهير ، فعلم منه أبي خلال الحديث أنه يجيد صنع ذلك الطعام المغربي الشهير (بالكسكسي) فما كان من أبي أن استصحبه إلى المطبخ حيث صنع لنا السيد الثعالبي وجبة من (الكسكسي) كانت شهية حقاً ، مع أننا في ذلك اليوم تناولنا غداءنا في الساعة الرابعة .

(ص١٣٣)

▪ كان المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب كثيراً ما يصاحب أبي إذ ذاك ، وقد علمت من عبد الوهاب أن أول مرة قدم فيها لأبي كان سنة ١٩٢٤م .

(ص١٣٥)

▪ وفي عام ١٩٢٧م أعاد أبى طبع ديوانه «الشوقيات» فأقيمت له بهذه المناسبة عدة حفلات تكريم اشترك فيها كثير من الأدباء والعظماء ، كما حضر لها خصيصاً وفود من الأقطار الشقيقة .. وأهم هذه الحفلات، حفلة الأوبرا التي كانت تحت رعاية المغفور له الملك فؤاد ورآسة سعد باشا الذي أناب عنه الأستاذ الجديلي بك في إلقاء كلمته ، لاعتكاف دولته .

وقد اختتمت هذه الحفلات بحفلة ساهرة كبيرة أقامها لهم أبي في (الكرمة) كانت الكرمة خلالها على حد تعبيره في عرس القوافي ، كما سُلمت لأبي في تلك السهرة

رسالة كان لها وقع عظيم في نفسه، إذ هي تحية من زعماء الثورة السورية ، كُتبت بميدان القتال وقد وقعها هؤلاء الأبطال واحداً واحداً .. وقد أشار أبي إليها في قصيدته في ذكرى شهداء استقلال سوريا إذ قال :

ذكرتُ المِهْرَجانَ وقد تجلَّى

ووفدَ المشرقين وقد توالى

دارى بين أعراس القوافي

وقد جليت سماء لا تعالى

تسلل في الزحام إليَّ نِضْوٌ

من الأحرار تحسبه خيالا

رسول الصابرين ألم وهناً

وبلغني التحية والسؤالا

دنا مني فناولني كتاباً

أحست راحتاي له جلالا

وجدت دم الأسود عليه مسكاً

وكان الأصل في المسك الغزالا

كأن أسامي الأبطال فيه

حَوَاميمٌ على رَقٍّ تتالى

رواة قصائدي قد رتلوها

وغنوها الأسنةَ والنصالا

إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها

فكانت في الخيام لهم نقالا

(ص١٤٤،١٤٨)

◙ قال المؤلف : في ذلك العهد رغب أبي عن المصيف في أوربا وصار يتردد على لبنان الذي افتتن بمحاسنه .

ولم يكن جمال الطبيعة وحده الذي حبب أبي في لبنان بل كانت كذلك محبة أهله له ، وحفاوتهم البالغة به كلما ذهب إلى هناك . فليس ثمة شعب في الشرق ، على ما أعتقد يهتم بالشعر والأدب كما يهتم هؤلاء القوم بهما ، وأذكر الحادث الآتي دليلا على ذلك : كنا ذات يوم في «عاليه» واقفين أمام الفندق ، فتقدم ماسح أحذية واستأذن أبي في تنظيف حذائه له فأذن له أبي ، فسأل أحد الحاضرين ماسح الأحذية وكلاهما لبناني ، أهو يعرف السيد الذي ينظف له حذاءه ؟ فأجاب ماسح الأحذية في زهو : طبعاً ياسيدي هو شاعر مصر الكبير الذي قال :

قبرَ الوزيرِ تحيَّةً وسَلاما

الحلمُ والمعروفُ فيكَ أقاما

ثم أنشد القصيدة كلها دفعة واحدة ! . وهي مرثية أبي في بطرس باشا غالي .

(ص١٥٢)

◙ وقد زار أبي خلال إحدى هذه الرحلات دمشق عاصمة الأمويين الشهيرة ، فاستقبله شبابها استقبالاً حماسياً عظيماً . وقد ذكر هؤلاء الشباب في القصيدة التي نظمها عنها إذ ذاك فقال : ...

نزلت فيها بفتيان جحاجحة

آباؤهم في شباب الدهر غَسَّانُ

بيض الأسرَّة باقٍ فيهم صَيَدٌ

من (عبد شمس) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له

لو أن إحسانكم يجزيه شكران

ما فوق راحاتكم يوم السماح يدٌ

ولا كأوطانكم في البشر أوطان

ثم زار في دمشق مسجدها الأموي التاريخي ، وقد بكي هناك ، كما بكى من قبل في جامع قرطبة ، بني أمية الأمجاد الذين شيدوا المسجدين فقال :

مررت بالمسجد المحزون أسأله

هل في المصلى أو المحراب (مروان)

تغيّر المسجد المحزون واختلفت

على المنابر أحرار وعبدان

فلا الأذان أذان في منارته

إذا تعالى ولا الآذان آذان .

(ص١٥٤)

◙ وفي عام (١٩٣٠م) توفيت عمتي فسافر أبي بعد تشييع الجنازة مباشرة إلى الإسكندرية ، أي إنه لم يحضر ليالي المأتم ، انتقده بعض الأقارب على هذا التصرف . والواقع أن تخلفه من تأدية هذا الواجب لم يكن جحوداً بأخته وإنما هو حساسية شديدة .. استدللت على هذا بأننا نحن أولاده وكان يحبنا حباً جماً ، عندما يمرض أحدنا مرضاً شديداً كان يهرب من البيت ، بل يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك حتى يزول الخطر. ومن الأدلة على هذه الحساسية الشديدة أن والدته لما توفيت في حلوان ، وكنا إذ ذاك في أسبانيا ، رثاها بمرثية طويلة ، ثم طوى هذه المرثية فلم ينشرها طول حياته ، ونشرناها نحن بعد وفاته ، ذلك لأنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها فيما بعد، وهي القصيدة التي مطلعها :

إلى الله أَشكو مِن عَوادِي النَّوَى سهما

أصابَ سويداءَ الفؤادِ وما أصمَى

ولما عدنا إلى مصر بعد المنفى ، لم يطق أن يذهب إلى حلوان حيث ماتت أمه المحبوبة .

(ص١٥٥)

▣ ومما يدل على محبته لأهله المتاعب التي تحملها خلال مرض أبيه ؛ فقد كان يحضر له يومياً على ظهر دابة الماء العذب من القاهرة .. لأن أباه كان يقيم إذ ذاك في ضاحية ليس بها ماء عذب .

ومن الأمثلة أيضاً على وفائه لأهله ما يلى : كان له ابن خال مريض بالسل ، وكان المرض متقدماً ومع ذلك كان أبي يجلس إليه الساعات الطويلة ويتناول معه الطعام مع استعماله نفس الأواني والمغارف حتى لا يشعر ابن خاله بما يؤلمه . وكان ابن خاله المسكين لا يشعر بدنو أجله ؛ فقد كان يخرج من جيبه – من وقت لآخر – كيساً مملوءاً بالذهب ثم ينثره على السرير ويصيح : انظر يا أحمد عندما أشفى من مرضى بإذن الله نسافر إلى باريز معاً حيث ننفق هذه النقود في اللهو والمرح ..

ويقال إن معظم المرضى بالسل هم على هذا المنوال من حيث التفاؤل والأمل الشديد في الشفاء . وكان ابن خاله هذا طويل الأنف فنظم أبى فيه مداعباً : هذين البيتين :

لك أنف يا ابن خالي :: تعبت منه الأنوف

أنت بالبيت تصلى :: وهو بالركن يطوف

(ص١٥٧)

▣ قال المؤلف : وكان أبي إذا أتم إحدى هذه الروايات (قمبيز) وغيرها دعا إلى (الكرمة) بعض الأدباء والممثلين (وبخاصة المرحوم عزيز عيد) لتقرأ عليهم .. فإذا رأوا تغيير أحد المناظر غيره لهم في الحال أي إنه ينظم عشرة أو عشرين بيتا آخر ... بقدر ما يتطلبه المنظر الجديد في لمحة بصر ! .

وبمناسبة هذه المقدرة الكبيرة على نظم الشعر ، قال لي أحد أصدقائه الأخصاء : إنه نظم أكثر أبيات (قصيدة النيل) المشهورة في سهرة واحدة بفندق سميراميس بقصر النيل ، وهي التي مطلعها :

من أي عهد في القرى تتدفق :: وبأي كفٍ في المدائن تُغدقُ

مع أن هذه القصيدة تزيد على مئة بيت ! .

(ص١٦١)

،،،، تم بحمد الله ،،،،